



تنبيه ورجاء:

هذا حديث من أربع حلقات، أتمنى ممّن قرأ واحدة منها أن يقرأ الحلقات الأخرى حتى لا يخرج بفكرة ناقصة أو يفهم المسألة على غير وجهها، ولو لا أن أطيل لجمعتها كلها في مقالة واحدة.

مضت من هذه الرباعية ثلاثة مقالات؛

في الأولى رجوتكم أن تُحيوا وتحمّوا الهُويّة الإسلامية السنّية وأن تجعلوها مظلة جامعة لكم،

وفي الثانية أكدت أن الانتفاء إلى الأمة يسبق الانتفاء إلى الوطن وأن الرابطة الدينية أعلى من الرابطة الوطنية، وقلت إنهم رابطان لا تعارض بينهما ويصبح اجتماعهما، بل يلزم، وفي الثالثة حذرت من السماح للعلويين بالسيطرة على مفاتيح سوريا ومقدراتها من جديد. تلك الثالث كففة، وهذه المقالة هي الكففة الثانية من الميزان.

كثير من الناس يُفرون أو يفرطون، فأرجو أن يدركوا أن بين الإفراط والتفرط منزلة وسطى هي خير المزالتين وأقربهما إلى حكم الشرع وعدالة القانون، وكما أطلقت تحذيرين فإني أطلق مناشتين، وأرجو أن تجتمع كلها معاً حتى يستقيم الميزان.

* * *

المناشدة الأولى:

أرجو أن لا ينجرف فريق متأن في العداوة والكراهية ونبذ الآخرين، ولا يقل أحد إن إحساسنا بهويتنا وتأسيس الولاء على الدين يستلزم إقصاء ورفض الآخرين.

أنا دعوت فعلاً إلى إحياء الهوية السنوية واحترامها وحمايتها من الذوبان، ولكنني أدعو أيضاً إلى احترام الآخرين وحماية هوياتهم الثقافية واللغوية والدينية. إنه حق مشترك لنا ولهم على السواء، نرفض أن نُحرَم منه، ولكن لا يُبيح لنا ديننا ولا تسمح لنا أخلاقياً أن نُحرَم منه الآخرين.

لقد عاشت في سوريا على الدوام جماعاتٌ مختلفة الأعراق والمذاهب والديانات، ومن حق كل جماعة منها أن تحافظ على هويتها، ومن حقها أن تشارك في بناء الوطن وفي الاستفادة من خيراته والعيش تحت سقفه الواسع.

إن سوريا وطن لكل السوريين، من حقهم أن يعيشوا فيه بحرية وكرامة وأمان وأن نبادلهم فيه خيراً بخير وبرأً ببرأ وإحساناً بإحسان.

إن الدعوة إلى إحياء أخوة الدين وتقديمها على رابطة الوطن لا تعني أبداً التفرط في رابطة الوطن والتنكر لها لأن الناس لا يعيشون بلا أوطان، وعمارة الأوطان حق، بل واجب، على كل إنسان.

إن أخوة الدين لا تنتقص حقاً من حقوق غير المسلمين؛ إنها لا تعني أبداً الظلم والعدوان ولا تعني الاستعلاء والحرمان، ولا تبرر أبداً نقض علاقات الشراكة والجوار، واقرؤوا إن شئتم: {لا ينهاكم الله عن الدين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوه وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

العدل من أعظم مبادئ الإسلام، والمسلم مطالب بالعدل حتى مع الأعداء، فكيف مع الشركاء وجيران الدار؟

حتى العلويون الذين دعوت إلى الحذر منهم وحذرت من تسليمهم مفاتيح البلد، حتى هؤلاء من حقهم أن يعيشوا في سوريا في أمان وأن لا يُعاقب منهم إلا المجرمون.

نعم، أنا دعوت إلى استبعاد العلويين من المشاركة في بناء وحفظ الوطن لأنهم هدموه وضيّعوه، ولكنني لم أدع إلى إجلائهم عنه ومنعهم من البقاء فيه. وأين يذهبون؟

وحتى عندما تحدثت عن وحدة المصير فإني لم أدع إلى إجمال مُسيئهم مع محسنهم في العقاب، بل قصدت إجمالهم بالاستبعاد من مراكز القيادة والتأثير في سوريا الحرة فحسب، فلا يكون أحداً منهم صاحبَ مركز ولا نفوذ، لا في الجيش وأجهزة الأمن ولا في غيرهما من أجهزة الدولة ومرافق البلد.

ومن غرائب المواقفات أنني ناقشت - قبل كتابة المقالات بوقت قصير - واحداً من شرفائهم، علويًا يعيش في المهجر منذ زمن، فكتب إليّ فيما كتب: "مهما فعلتم بنا فإننا نستحق ما تفعلون؛ علينا أن ندفع ثمن وقوفنا مع نظام الأسد ومدّه بأسباب

البقاء على مر السنين".

أقول له: لن ن فعل بكم ما ينهانا عنه ديننا العظيم؛ لن نؤذى بريئاً ولن نعاقب إلا المجرمين، ولكننا لن نأمن على سوريا بين أيديكم ولن نسمح بأن تملكونا مفاتيحها منذ اليوم.

* * *

المناشدة الثانية: يا أيها المسلمون، يا أيها المجاهدون:

احذروا الانتقام الأعمى والقتل العشوائي.

لا تستهدفوا إلا من قاتل أو أعان وظاهر على قتال، لا تعتدوا على طفل ولا امرأة ولا على بريء كبير أو صغير.

إن النظام يقترب من ساعة السقوط، وسوف يأتي قريباً يومٌ يكون فيه مصير الآلاف من الأبرياء معلقاً بقرار يتخذه حملة السلاح، فلا ترتكب إثماً يا حامل السلاح ولا تخالف دينك ولا تُغضب ربك، فإنك ما جاهدت في سبيله إلا ابتغاء رضاه، وقتل الأبرياء ظلم وعدوان، والله لا يرضى عن الظلم ولا يُفرّع العدوان على الأبرياء، فإنه قال في الحديث القدسي: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا"، وقال في كتابه الكريم: {لا عدوان إلا على الظالمين}.

يا أيها المجاهدون:

إنكم ما حملتم السلاح وجاهتم إلا في سبيل الله، والله قد أشترع لكم شريعة، فكيف يكون الجهاد جهاداً في سبيله إذا حالفتم شريعته؟

إن للحرب في الإسلام آداباً وشروطًا حاسمة، ومن شروطها أن لا يقتل المجاهدون غير المقاتلين، فيُسلّم منهم النساء والأطفال والعجزة والعايدين في محاربهم، ويُسلّم الرجال من غير المقاتلين (أو "المدنيون" بالتعبير المعاصر).

أخي المجاهد: أنت اليوم مقاتل مسلح، ولكنك كنت قبل اليوم مسلماً وستبقى مسلماً غداً، والمسلم لا يصدر في أفعاله عن هواه إنما يصدر عن شرع ربه، والشرع يقول لك إن الناس لا يُقتلون بسبب انتقامتهم ومعتقداتهم ولكن بسبب أعمالهم وتصرفاتهم، فمن حارب حرباً ومن قاتل قاتل، ومن اعتزل فلم يمد يداً بسوء فلا سلطان لك عليه، ولو كان علويأً أو يهودياً أو بوذياً أو كائناً ما يكون.

أخي المجاهد:

إياك أن تستسلم لشهوة الانتقام، فإنها غريزة من أسوأ الغرائز وإنها من نزغ الشيطان.

إياك أن تفقد إنسانيتك ورجلولتك، وقبلهما دينك وأخرتك.

إياك أن تقتل بريئاً لم يرتكب جرماً يُحِلّ دمه، فإن قتل الأبرياء لا يجوز في ديننا العظيم، والقاعدة الكبرى في هذا الأمر الخطير هي قوله تعالى: {لَا تَرُرُوا زَرْهُ وَزْرَ أُخْرَى}، فلا يُقتل بالقاتل غيره ولو كان من أهله المقربين.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى {فَمَنْ اعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَ عَلَيْكُمْ}: "من ظلمك فخذ حقك منه بقدر مظلمتك، لا تتعذّر إلى أبويه ولا إلى ابنه أو قريبه".

إياك أن تقتل طفلاً ولو كان ابنَ شَيْخٍ مجرم قاتل، فإن الطفل بريء لم يكُلَّف ولا يُؤاخذ بجرائم الآخرين.

إياك أن تقتل امرأة غير مقاتلة ولو كانت زوجة شَيْخٍ مجرم قاتل أو أخته أو أمه، فإن المرأة في شرعنا مصونة من القتل فلا تُقتل عمداً - بإجماع الفقهاء - إلا إذا حملت السلاح (واستثنوا المرأة الملكة - أي إذا كانت ملكة على القوم - فأجازوا قتالها لأن في هدماً للروح المعنوية لجماعة المقاتلين).

لقد أجمع العلماء على تحريم قتل نساء وصبيان المحاربين ما لم يقاتلوا (ونقل الإجماع على ذلك ابن حزم في مراتب الإجماع وأبن حجر في فتح الباري والنوي في شرح صحيح مسلم وغيرهم من العلماء).

يا أيها المؤمنون ويا أيها العقلاء:

إني أسمع من يدعوا إلى إبادة العلوبيين جميعاً فيقشعر بدني، لأن هذه الدعوة تخالف الدين، والدين هو أثمن ما نملكه في الحياة، فكيف نتهاون فيه؟

ولأن الذي يقتل الأبرياء - ولا سيما الأطفال والنساء - يقتل إنسانيته، ويا لخسارة من يضحي بإنسانيته في سبيل إرضاء غريزة الانتقام!

ولأن أي عمل من هذا النوع من شأنه أن يعقد المشكلة ولا يحلها، فإن في العلوبيين من لم يعتد علينا ولم يشارك في الجريمة، وهؤلاء بعضهم كان معنا بعمله وبعضاً منهم بكلامه وبعضاً منهم بقلبه، وأكثرهم اختاروا الصمت السلبي، وكلهم ليسوا من الأعداء اليوم، ولكنهم سيصبحون كذلك غداً لو مَسْتُهم نارُ الانتقام، ومن يموت منهم مظلوماً فسوف ترث ذريته دمه ويسكتها هاجس الحقد والانتقام ولو بعد حين.

إنها دورة لا نهاية لها، ولا حل لها إلا بتطبيق الشرع والقانون، وكلاهما يقولان: لا عفو عن مذنب ولا عقوبة على بريء.

* * *

الخلاصة:

إني أخاف وأخوّف الناس من المبالغة في اللطف والرقابة ومن التفريط في الحقوق، ولكنني أخاف أيضاً وأريد أن أخوّف الناس من الإفراط في استقصاء العدالة لدرجة ظلم الأبرياء.

وأخاف وأخوّف الناس من التفريط في الهوية والذوبان في ثقافات الآخرين، ولكنني أخاف أيضاً وأريد أن أخوّف الناس من الكراهية والظلم والكِبْر والعدوان.

إني أدعو إلى الحذر وأدعو إلى العدالة، ولكنني أنهى عن الظلم وأنهى عن الانتقام.

* * *

ملاحظة: كتبت المقالات الأربع معًا ثم نشرتها واحدةً بعد واحدة، وقبيل نشر هذه الأخيرة وصلني تعليق من أخ فاضل لم أجده بدأ من الجواب عنه.

قال: هل هذا وقت مناسب لنشر مقالات تزيد الفرقة والانقسام؟

هل هذا أوّان الحديث عن العلوبيين وعن مستقبل العلوبيين في سوريا؟

قلت: أيها الأخ الكريم، إذا لم يكن مناسباً نشر هذه المقالات اليوم فمتى يكون؟

إن أعداء الأمة يستميتون لزرع العلوبيين في أعلى المراكز ويصرّون على توليهم جيش سوريا وأجهزة الأمن فيها، وهذا معناه أنهم يريدون إبقاء مفاتيح البلاد في أيديهم، فإذا لم تدرك الثورة هذا الخطر أو شكت أن تقع فيه، ثم لا تنجو منه في السنين الطوال!

وفي الطرف الآخر عدد لا يُحصيه العادون من الضحايا الذين يتربّون سقوط النظام لبِدُؤوا بالانتقام.

هل أنتظر حتى تحرّك السكاكيين رقاب الأبرياء أم أوصل إلى العقلاء الرجاء والنداء؟

لو وصل صوتي اليوم إلى ألف رجل كان منهم عشرةً من أولئك الضحايا فاقتتنع بكلماتي واحدًّا منهم فنجا من الموت بريء فقد استوفيت الثمن، وإن لم يكن فيكفيني أنني قد أعتذر وأبلغت.

المصادر: